الحياة الطيّبة
السنة 26
العدد 50-51
صيف - خريف 2022م
ملف العدد

تطوّر بُنى التربية الدينيّة الإسلاميّة وأشكالها

الدكتور غالب العلي[1]

مُستَخلَص:

قبل ظهور الإسلام كانت توجد ثلاثة أنواع من التربية في المشرق هي: التربية الفارسيّة، والتربية الإغريقيّة، والتربية المسيحيّة، وكان لكلّ منها طابعه الخاصّ الذي يميّزه عن غيره، والذي يعتمد على روح الفلسفة الممثّلة لكلّ منها. وبمجيء الإسلام ظهرت تربية جديدة استندت إلى الفلسفة التوحيديّة، وقد استطاعت، في فترة وجيزة، أن تفرض وجودها وتبرز إلى العلن. وقد جمعت بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم. ويمكن أن نتلمّس مراحل تطوّر التربية الدينيّة الإسلاميّة ابتداءً من عهدها الأوّل مع مؤسّسها النبي محمّد ﷺ حتّى نهاية القرن التاسع عشر.

فالتعليم لدى المسلمين اتّصل بالدين اتّصالَ الوسيلة بالغرض، فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة لم يكن غاية في نفسه، بل هو سبيل لتحصيل القرآن، فكان القرآن هو محور العمليّة التربويّة والتعليميّة.

(1) أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانيّة ومدير الإشراف التربوي في المؤسّسة الإسلاميّة للتربية والتعليم، من لبنان.

وقد عرف المسلمون أشكالًا مختلفة للتعليم الديني، كان من أبرزها: حلقات التعليم في المنازل، حلقات التعليم في المساجد، الكتاتيب، البعثات الدينيّة إلى الأمصار، حركة المؤدّبين، نظام الحجر، دور التعليم، معاهد التُرب، المدارس الدينيّة، مجالس الحكماء.

ولم يستمرّ الوضع على حاله، فكان لانفصال نظام التعليم عن الدين الذي ساد في القرن التاسع عشر تأثير سلبيّ في مكانة التربية الدينيّة عمومًا، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ التعليم الديني، ارتكزت على الفصل بين الدين والعلم، فانحصر مجال التعليم الديني التخصّصي في مدارس دينيّة متخصّصة في تعليم الدين، وتقلّص نصيب التربية الدينيّة من الوقت المخصّص للتعليم في المدرسة الحديثة وذلك بحكم اتّجاهها نحو العلوم الحديثة المختلفة.

وبالمحصّلة العامّة وجدنا أنّ الصفة الغالبة على التعليم حتّى أواخر القرن التاسع عشر كانت هي الصفة الدينيّة. وبعد انفصال النظام التعليمي عن الدين في معظم دول العالم انكفأ التعليم الديني في المدارس لصالح العلوم العصريّة التي أخذت بالتنامي والتوسّع، فارضة نفسها على النظام التعليمي والواقع الاجتماعي. ولكنّ التعليم الديني خارج المدرسة لم يتوقّف، بل استمرّ كما كان من قبل، وعزّز أطره السابقة، واستحدث أطرًا جديدة للتعليم التخصّصي.

كلمات مفتاحيّة:

التعليم الديني، التربية الدينيّة الإسلاميّة، أشكال التربية الدينيّة.

مقدّمة:

لا يُمكن لأحد إنكار دور الدين في حياة المجتمعات، وعلى الأصعدة كافّة، السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميّة والتربويّة. وتوجد نظرة اجتماعيّة فلسفيّة ترى في الدين أنّه المنبع الأساسي لكلّ العمليّات في المجتمع الإنساني[1].

وبالعودة إلى التاريخ، نجد أنّ للدين دورًا كبيرًا في بناء الأمم والحضارات وفي نهوض الشعوب عندما أخذ منحاه الإيجابي وسلك به المتديّن الطريق السليم، كما كان له دور سلبيّ عندما استُغلّ ورُفعت شعارات دينيّة فارغة المضمون لتقود أممًا وشعوبًا نحو الهلاك والموت.

إذًا يضطلع الدين بوظائف محوريّة في تشكّل البنية المجتمعيّة لأيّ مجتمع من المجتمعات وفي الحفاظ على توازن أنساقها الاجتماعيّة.

ومن أبرز هذه الوظائف من المنظور الاجتماعي هي الوظيفة التربويّة، فقد اكتشفت المجتمعات على مدى تطوّرها ونموّها أنّ الأطفال والناشئة لا يتشرّبون جوهر ثقافة مجتمعهم بأنفسهم، بل لا بدّ من عمليّتي التوجيه والإرشاد[2] اللتين تشكّلان الدعامة الأساسيّة للتربية، فتعمل التربية من خلالهما على تشكيل شخصيّة الإنسان ليندمج في الإطار العام للجماعة التي ينتمي إليها، وليصبح متكيّفًا مع هذه الجماعة وأنماط قِيمها، وليبني اتّجاهاته وأدواره الاجتماعيّة.

فالتربية، بهذا المعنى، هي عمليّة اجتماعيّة سيكولوجيّة تعكس ما في المجتمع من قيَم ومُثل وعادات وتقاليد وأنماط سلوك وغير ذلك من الأنماط الثقافيّة التي تسود المجتمع، إنّها أداة المجتمع في صنع المستقبل والتلاؤم مع الحاضر[3].

(1) السيّد، عبد العاطي: أسس علم الاجتماع، لا ط، مصر، دار المعرفة الجامعيّة، 2005 م، ص: 262.
(2) مرسي، محمّد: تاريخ التربية في الشرق والغرب، لا ط، القاهرة، عالم الكتب، 1977 م، ص:5.
(3) غالب، حنّا: التربية المتجدّدة وأركانها: لا ط، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، 1970م، ص16.

ولمّا كان الدين يُعتبر في مجتمعات العالم مكوّنًا مهمًّا من مكوّنات الفكر الجمعيّ، وجزءًا من البناء الفوقي (Superstructure) الذي يحوي القوانين والثقافة عمومًا[1]، ولمّا كان الدين يساهم في صنع عالَم الفكر والسلوك في أيّ حضارة، فإذا كان هدف العمليّة التربويّة تنمية الشخصيّة بالمعارف والمواقف والقيم، فهي لا تستقيم بعيدًا عن الأديان[2].

فالدين، من جهة، يرافق الإنسان ليرشده ويضبط سلوكه ويوجّه أفعاله طيلة أيّام حياته، يومًا بيوم، ولحظة بلحظة، ويعتبر الدين من جهة أخرى عامل تثبيت للأخلاق ودعامة أساسيّة لها. ويرى بعض العلماء أنّ الأخلاق لا يُمكن لها أن تستقرّ من دون الدين، إذ يقول الكاتب الروسي دستوفسكي (Dostoevsky) إنّه "لو لم يكن الله موجودًا لاستُبيح كلّ شيء"[3]، أي أنّه سوف لا يكون هناك أيّ شيء يمنع الإنسان من ارتكاب العمل المنافي للخُلق، فالقدر المسلّم به هو أنّ الدين ضروري لدعم الأخلاق الإنسانيّة[4]. وقد أثبت علم النفس، من خلال إحصاءاته وتجاربه، أنّ التربية الدينيّة والأخلاقيّة التي يتلقّاها التلميذ تتركّز في اللاوعي، فتكسبه رادعًا ذاتيًّا يكون بمثابة المرشد والموجّه والمميّز بين الخير والشرّ[5]. والتربية الدينيّة تساعد الإنسان على معرفة نفسه وتسعى بموضوعاتها لتكشف للمتعلّم كشفًا تدريجيًّا عن الكائن الذي يسعى لأن يكونه[6].

(1) الأمين، عدنان؛ وفاعور، محمّد: الطلاب الجامعيّون في لبنان واتّجاهاتهم، لا ط، بيروت، الهيئة اللبنانيّة للعلوم التربويّة، 1998، ص: 293.

(2) صعب، أديب: وحدة في التنوّع، محاور وحوارات في الفكر الديني، ط1، بيروت، دار النهار، 2003، ص 83 - 84.

(3) نقلاً عن: مطهّري، مرتضى: التربية والتعليم في الإسلام، ترجمة لجنة الهدى، ط.3، بيروت، دار الهادي، 2000، ص 74.

(4) م.ن.، ص 74.

(5) رمزي النجّار، كي يعود الله إلى لبنان، ط1، بيروت، دار الجديد، 1999، ص 17.

(6) رونيه أوبير، التربية العامّة، ترجمة عبد الله عبد الدائم، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1979، ص 28.

فآثار التربية الدينيّة تظهر على مستوى الفرد في سلوكه وخُلقه، وعلى مستوى الجماعة في تساندها وتوافقها الاجتماعي.

لذا، فللدين وظيفة تربويّة مؤثّرة في المجتمع ككلّ، لأنّ الدين حاضر في كلّ الميادين ويشكّل ضمانة لاستقرار المجتمع، فيعمل من خلال مبادئه وقِيمه وتعاليمه على توجيه السلوك الفردي والجماعي.

فالدين من المنظور الوظيفي يقوم بربط الفرد بالجماعة، فيقدّم له العون المعنوي عند الشعور بالضياع والخيبة، وهو بمثابة قوّة داعمة للفرد والجماعة، فيغلّب الفرد الأهداف الجماعيّة على نزعاته الفرديّة؛ وذلك لما يجده في الدين من إمكانات ترفع من معنويّاته وتدعّم شعوره بالانتماء[1]

وممّا تقدّم، يُمكن القول إنّ الدين بقِيمه وتعاليمه يؤدّي خدمة كبرى للمجتمع الإنساني، ويقع في صلب العمليّة التربويّة، فكيف تمظهرت التربية الدينيّة وكيف عبّرت عن نفسها في واقع الممارسات التعليميّة عبر التاريخ؟

وفي ما يلي سنتناول التربية الإسلاميّة كنموذج لتطوّر التربية الدينيّة بأشكالها، ممّا يعطينا فكرة عن واقع ممارساتها بحسب المرحلة التاريخيّة التي مرّت بها.

فقبل ظهور الإسلام كان ثمّة ثلاثة أنواع من التربية في المشرق، هي التربية الفارسيّة والتربية الإغريقيّة والتربية المسيحيّة، وكان لكلٍّ منها طابعه الخاصّ الذي يميّزه عن غيره، والذي يعتمد على روح الفلسفة الممثّلة لكلّ منها. وبمجيء الإسلام ظهرت إلى العلن تربية جديدة استطاعت، في فترة وجيزة، أن تفرض وجودها وتبرز إلى العلن. وقد جمعت بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم. وقد عنيت بالتربية الدينيّة

(1) نقلاً عن: عبد الباقي الهرماسي، "علم الاجتماع الديني: المجال المكاسب التساؤلات"، في الدين في الجتمع العربي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2000، ص: 18؛ انظر في: Kingsley Davis; Robert Merton.

والخلقيّة والعلميّة والجسميّة، من دون أن تهمل نوعًا على حساب الآخر، وكانت واضحة الخصائص وبارزة السمات.

ويمكن أن نقسم مراحل تطوّر التربية الدينيّة الإسلاميّة ابتداء من عهدها الأوّل مع مؤسّسها النبي محمّد ﷺ حتّى نهاية القرن التاسع عشر إلى خمس مراحل.

1 - التربية مع النبي محمّد ﷺ:

في أواخر القرن السادس الميلادي، وفي شبه الجزيرة العربيّة، كان الدين الرائج هو الوثنيّة وعبادة الأصنام، وكانت الأمّيّة متفشيّة، وكانت الجاهليّة هي السمة العامّة التي تطبع مجتمعات تلك المنطقة من العالم، فالحروب والمعارك تمتدّ لعشرات السنين ولأتفه الأسباب[1]، والقتل وسفك الدماء من مفاخر الرجال، وقطع الطرق للسلب والنهب ممتدٌّ على طول خطوط سير القوافل؛ "لأنّهم بطبيعة التوحّش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه"[2]، ومجانبة الحق والتعصّب مبدآن رائجان على قاعدة "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، ووأد البنات أحياء بعد ولادتهم مباشرة، وكانت الأوهام والأباطيل والخرافات منتشرة على نطاق واسع ومتغلغلة في عقول العرب... وممّا يصف به الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حال العرب قبل الإسلام بقوله: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ وأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ (...) تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، والآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ[3]، بَعَثَهُ والنَّاسُ ضُلالٌ فِي حَيْرَةٍ وحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ واسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ واسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ وبَلاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ..."[4].

(1) من الأمثلة على ذلك حرب داحس والغبراء التي قامت بين قبيلتين واستمرّت من العام 568 إلى العام 608 بسبب نزاع على سباق للخيل.

(2) ابن خلدون: المقدّمة، الفصل الخامس والعشرون.

(3) الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، لا ط، بيروت، دار التعارف، لا ت. الخطبة 26.

(4) م.ن، الخطبة 95.

في هذا المجتمع القبلي، وفي العام 570 م وُلد الطفل محمّد بن عبد الله في مكّة، لتكون ولادته إيذانًا بنهاية حقبة زمنيّة وبداية أخرى، أبرز ما يميّزها "الرحمة"، فهو رسول الرحمة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، فكانت سيرته بين الناس سيرة الصالحين، ووُصف بالصادق الأمين قبل بعثه نبيًّا. وقد عمل منذ اللحظات الأولى على تغيير الواقع الاجتماعي بالدعوة إلى المساواة بين البشر، وإلى تحرير العبيد، وإلى نبذ العنف وإحلال السلام، وإلى رفع شأن المرأة، وقدّم مفاهيم جديدة للحياة بين الناس قوامها الأخوّة والتعاون والتعاضد والتماسك والمحبة والرأفة والخدمة، ودعا إلى تطهير العقل من الأوهام والتخيّلات والخرافات.

وقد كان الأمثولة العمليّة بحركاته وسكناته، وجسّد تعاليم القرآن بسيرته، فكان يجول بين الناس، ويجلس مع الفقراء، ويأكل مع المعدَمين، ويلبس لباس العامّة، ولا يُميَّز عن سواه، وكان طبيبًا للنفوس والقلوب والعقول، ويصفه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بقوله: "طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ وَآذَانٍ صُمٍّ وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ"[2].

ولقد اهتمّ اهتمامًا خاصًّا بالعلم والتعلّم، فالقرآن يشجّع على طلب العلم بقوله: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[3] و﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[4] و﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[5] و﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[6]،

(1) سورة الأنبياء، الآية 107.
(2) الرضي، نهج البلاغة، الخطبة 108.
(3) سورة المجادلة، الآية 11.
(4) سورة فاطر، الآية 28.
(5) سورة الزمر، الآية 9.
(6) سورة الأنفال، الآية 114.

وما روي عنه في العلم والعلماء كثير، فقد جَعل العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، وشجّع على طلب العلم بقوله: "اطلبوا العلم ولو بالصين"[1] و"اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" و"اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج وسفك المهج" و"بالعلم يُطاع الله ويُعبد" و"لإن تغدو فتتعلّم بابًا من العلم خير من أن تصلّي مائة ركعة".

وقد طلب النبي ﷺ من المشركين الأسرى في غزوة بدر أن يحرّروا أنفسهم بأن يقوم كلّ واحد منهم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، صغارًا كانوا أم كبارًا. كما جعل القراءة لمن لا يعرفها بمثابة مهر في الزواج[2]. وكان من ثمار هذه السياسة التعليميّة ازدياد عدد الكاتبين حتّى بلغ عدد كتّاب النبي ﷺ وحدهم حوالي 50 كاتبًا[3].

وقد بذل جهدًا كبيرًا في تعليم أصحابه وأتباعه بالوسائل المختلفة والطرق المتعدّدة، فكان المعلّم الأوّل في الإسلام، يتلو القرآن ويعلّمه ويفسّر آياته. وكان يجلس بمنزله في مكّة فيلتفّ المسلمون حوله ليعلّمهم ويزكّيهم.

وبعد بناء المسجد في المدينة (يثرب)، كان الناس يجتمعون فيه في خمسة أوقات، ويحيطون بالنبي ﷺ ليبلّغهم الوحي ويفسّر لهم ما فيه، ويعلّمهم أمورهم الدينيّة والحياتيّة، ويربيهم على الفضيلة والتقوى والأخلاق، وينمّي وعيهم الاجتماعي، ويعرّفهم حقوقهم وواجباتهم في الدولة، وكان للنساء مجلس خاص فيه أيضًا. فالمسجد أنشأَ ليكون مكانًا للعبادة ومكانًا للتعلّم واكتساب المعرفة، فلا تفريق بين العبادة بالصلاة والعبادة بالتعليم والتعلّم، فكان المسجد مدرسة لتعليم القرآن والكتابة ومحو الأمّيّة. وبذلك أضحى مؤسّسة تربويّة فاعلة في المجتمع الإسلامي منذ بدء الرسالة الإسلاميّة.

(1) محمّد الريشهري: ميزان الحكمة، ج3، 2846.
(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، لا ط.، بيروت، دار صادر، 1957، ج3، 109.
(3) م.ن، ج3، 531.

وبعدما كثر معتنقو الدين الجديد، هيّأ النبي ﷺ جمعًا من أصحابه، ممّن تعلّموا القرآن وحفظوا آياته، وبعثهم في الأرجاء والأمصار ليعلّموا الناس القرآن ومبادئ الدين، ومن هؤلاء مصعب بن عمير ومعاذ بن جبل.

وبعد ثلاثة وعشرين عامًا من عمر الدعوة الإسلاميّة، استطاع النبي محمّد ﷺ أن يغيّر تاريخ العرب، ويُزيح الظلم، ويؤسّس لنهضة حضاريّة تحدّث عنها مؤلّف اللغات الساميّة "رينان" قائلاً: "لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمّة فاتحة مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القرون الأولى من الميلاد، حيث كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ"[1].

2 - التربية الدينيّة مع بدايات نشوء الدولة الإسلاميّة:

مع بدايات نشوء الدولة الإسلاميّة نمت حركة التعليم منطلقة من الحافز الديني للتعليم والتعلّم، ومرتكزة إلى نظريّة المعرفة الشاملة والمتكاملة المستندة إلى القرآن الكريم والمترجمة في سيرة النّبي محمّد ﷺ. فانصرف المسلمون إلى تعلّم دينهم ونشره، واهتمّوا بداية بالعلوم المتّصلة بالقرآن، فقد كان للقرآن الكريم الفضل الكبير في انتشار التعليم بين المسلمين، فأقبلوا على دراسة اللغة العربيّة توصّلاً لقراءة القرآن وفهمه، فنشأ لديهم علم اللغة والتفسير والقراءات وعلم الكلام وغيرها[2].

وكان التعليم مجّانيًّا من البداية؛ لارتباطه بالعقيدة، وللقدسيّة التي أُسبغت عليه، ممّا جعل روّاده يهدفون إلى خدمة المبدأ بعيدًا عن التكسّب به، وكان التعليم عامًّا للجميع، فلم يكن مقتصرًا على الطبقات الحاكمة والغنيّة، بل إنّ حظّ الفقراء كان كبيرًا.

(1) نقلاً عن: غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، لا ط، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، لا ت، ص 91.

(2) عاقل، فاخر: التربية قديمها وجديدها، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1985م، 52 - 53.

ولمّا كان الهدف البعيد للتربية الإسلاميّة يتمثّل في تعليم الدين، كان من الطبيعي أن يكون المسجد هو المكان الأبرز للتربية الإسلاميّة بين سائر الأمكنة التي عُرفت للتعليم.

فللمسجد مكانة كبيرة في حياة المسلمين، فقد كان المعبد الذي يؤمّه المؤمنون لتأدية الصلاة وإقامة الشعائر الدينيّة، وهو المعهد الذي يتعلّمون فيه أمور دينهم ودنياهم، والمنتدى الذي يرتادونه ليتواصلوا مع بعضهم، فيتداولون شؤونهم الإداريّة والسياسيّة والعسكريّة، وهو الساحة التي يجتمعون فيها لسماع قرارات أمرائهم، ودار القضاء التي يلجأون إليها لحلّ خلافاتهم، وكان أحيانًا مضافة الغريب وصومعة الناسك، وأحيانًا أخرى موضع بيت المال، أو مستقرّ خزائن الكتب، أو غير ذلك ممّا يتطلّبه المجتمع، إلاّ أنّ الوظيفة التربويّة للمسجد كانت تحتلّ الصدارة.

ويبدو أنّ المساجد الأولى كانت بسيطة جدًّا تقتصر في الغالب على ساحة مربّعة مسوّرة، إلاّ أنّها كانت واسعة لاستقبال أكبر عدد من المؤمنين، ثمّ ما لبث المسلمون أن قاموا بتنظيم المساجد وتجميلها، فأصبح المسجد مؤسّسة عامّة تستقبل الجميع طوال الوقت وتقدّم التعليم المناسب في القرآن والحديث، وتزوّدهم بالأحكام في جميع مجالات الحياة العمليّة، كما ترشدهم إلى الأسلوب الصحيح لأداء شعائرهم الدينيّة.

وقد برزت الحركة العلميّة في المدينة (يثرب) ومكّة والكوفة والبصرة ودمشق والفسطاط[1]. وفي هذا المجال يُمكن الحديث عن المدرسة التي أسّسها الإمام الصادق عليه السلام في المدينة المنوّرة[2]، والتي انتقلت لاحقًا إلى الكوفة[3]، فقد كانت تتّصف بالشموليّة، فهي لم تقتصر على دراسة الفقه

(1) أكرم العمري: "التعليم في عصر السيرة والراشدين"، مقالة في كتاب التربية العربيّة الإسلاميّة، لا ط، عمان، المجمع الملكي، 1989، ج1، 81- 83.

(2) الأمين، حسن: الجانب العلمي والفكري من شخصيّة الإمام الصادق، دراسات وأبحاث، مجموعة باحثين، 1412 هـ ص:181.

(3) عبد المهدي حربي التميمي، ثامر: المعرفة وتطبيقاتها الجدلية في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، ط1، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، 2019، ط1، ص:85.

والحديث، بل شملت التفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام وفنون العربيّة، وتجاوزت ذلك لتشمل العلوم العلوم التطبيقيّة، والفلسفات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة[1]. وقد اتّخذ الإمام الصادق عليه السلام من الحرم النبوي مركزًا لإلقاء الدروس، حتّى تحوّل إلى أكبر معهدٍ من المعاهد الإسلاميّة في زمانه، فقد قُدّر عدد الطلبة المتخرّجين من تلك المدرسة بنحو أربعة آلاف رجل[2]، وقد صنّف الحافظ أبو العباس بن عقدة (ت: 333هـ) كتابًا جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف. وقد توافدت على هذه المدرسة البعثات العلمية من كلّ حدب وصوب.

كما نشطت بعثات التعليم التي كانت تُرسَل إلى البوادي والأمصار لتعليم المسلمين شرائع الإسلام، وكان التعليم الديني من المسؤوليات المنوطة بالولاة.

ولم يكن التعليم في البداية تابعًا للدولة الإسلاميّة، وإن كانت تدعمه في بعض الأحيان، فقد قام على الجهود الفرديّة للعلماء والمتعلّمين الذين عُرف عنهم اجتهادهم في طلب العلم والسفر في البلدان لطلبه وتجميعه. وقد تمتّع العلماء بمكانة عالية واحترام كبير بين الناس، وكانوا يعقدون حلقات العلم في المساجد، ومن هذه الحلقات المعروفة حلقة الصحابيّ جابر بن عبد الله الأنصاري التي كان يعقدها في المسجد النبوي.

وكانت موضوعات التعليم تتمثّل في القرآن وعلومه، والحديث، والفقه، واللغة العربيّة، والتاريخ، والأنساب، والقصص، واللغات، والثقافات الأجنبيّة... وكان حفظ القرآن وإقرائه وتفسيره يتقدّم بقيّة الموضوعات، فهو أصل التعليم الإسلاميّ وأساس التربية الإسلاميّة، وكذلك العلوم التي تتعلّق بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وحرامه وحلاله، وأمثاله... وأمّا الحديث فهو ما يتعلّق بأقوال النبي صلى الله عليه وآله، والفقه يشمل أحكام

(1) الجندي، عبد الحليم: الإمام جعفر الصادق، لا ط، نشر انصاريان، قم، 2006م، ص 110.
(2) حيدر، أسد: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، لا ط، النجف، مطبعة النجف، 1963، ج1، ص:41.

العبادات والمعاملات التي تنظّم النشاط الفردي والجماعي والمستندة إلى القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة.

وتمثّلت طرق تلقّي العلم بالسماع والعرض والمذاكرة والسؤال، واعتمد على المحاضرات الشفهيّة لا الكتب، أمّا الرسائل المكتوبة، فكان نطاقها محدودًا، فكان الشيخ يلقي المعلومات على الطلبة بصوته بعد أن حفظها، وكان يلجأ إلى إعادة الكلام ليتمكّن المستمع من إتقانه وحفظه، وقد انتشرت المذاكرة بين الطلبة لدى اجتماعهم، فكانوا يتذاكرون العلم لتثبيته.

أمّا السؤال فكان هو الأسلوب الشائع، فقد كان الصحابة يسألون النبي محمّد ﷺ عمّا يعرض لهم وعمّا يحتاجونه لمعرفة حكم الدين فيه، واستمرّت هذه الطريقة في تلقّي العلم لاستمرار الحاجة للمعرفة الدينيّة.

واستعمل المتعلّمون في كتابتهم مواد مختلفة كالحجارة والعظام، فضلاً عن سعف النخيل والقماش والجلود وورق البردى.

وإلى جانب حلقات العلم في المساجد انتشرت حركة الكتاتيب والمؤدّبين. والكتّاب كان موجودًا قبل الإسلام داخل الجزيرة العربيّة، وكان شائعًا ومعروفًا في بلاد فارس، وهو أشبه ما يكون بمدرسة أوّليّة أو ابتدائيّة. وكانت الكتاتيب تقوم على المبادرة الفرديّة، ولم تكن مرتبطة بالدولة، لا من حيث الإنفاق ولا من حيث منهج التعليم، فنظامها كان حرًّا بالكامل، إلاّ أنّ المسلمين أَوْلَوْهَا عناية كبيرة لاستناد الدين الإسلامي إلى القرآن الكريم، ووجود ارتباط وثيق بين تعلّم الدين وتعلّم القراءة والكتابة؛ لذا فقد انتشرت انتشارًا واسعًا وعرفتها معظم المدن والقرى.

والغرض الأساسي من الكتّاب هو تعليم الصبيان القرآن والقراءة والكتابة وبعض النحو والحساب، وما يتّصل بالتعاليم الدينيّة من عبادات كالصلاة وغيرها. وكان الصبيان يذهبون في الصباح الباكر إلى الكتّاب ويحملون

ألواحهم، ويجتمعون في باحة مسجد، أو بيت فقيه، أو بجانب سبيل عام، أو تحت ظلّ شجرة، أو في حانوت مستأجر، وقد جرت العادة أن يكون معلّم الكتّاب من الذين يحفظون القرآن ويلمّون بالعلوم الدينيّة. فالمعلّم هو فقيهٌ أتمَّ تعليمَه على شيخه، وأخذ منه إجازة التعليم[1].

3-التربية الدينيّة حتّى القرن الرابع الهجري:

لم تختلف التربية الدينيّة كثيرًا في تطبيقاتها العمليّة عمّا كانت عليه في بدايات عهد الدولة الإسلاميّة، فقد حافظت على سماتها العامّة، وإن اختلفت في بعض التفاصيل التي سنضيئها من خلال عرض واقعها في بعض الأمصار التابعة للدولة الإسلاميّة حتى القرن الرابع الهجري.

3-1 - التربية الدينيّة في الشام:

كان المسجد في بلاد الشام هو المكان الرئيس للقاء حمَلَة العلم وطلّابه، فقد اعتُرف للمعلّمين بحقّهم في ممارسة التعليم في المسجد بناء على مبادرتهم الشخصيّة، وتُركت لهم أيضًا الحريّة في تنظيم عملهم من حيث تحديد زمانه ومكانه ومقاربته للمتعلّمين بصورة تتناسب مع موضوع تعليم كلٍّ منهم بالتوافق بين المعلّمين من جهة والنشاط العام للمسجد من جهة أخرى[2].

وقد أفاد المعلّمون من هذه الحرّيّة التي مُنِحَت لهم، فنظّموا تعليمهم بحسب نماذج رئيسة أربعة:

- **التعليم الزمري:** هدف هذا النوع من التعليم هو تلبية الحاجة إلى تعليم القرآن الكريم لأكبر عدد ممكن من المسلمين في أقصر فترة ممكنة، خاصّة مع عدم وجود نصّ مكتوب؛ لأنّ القرآن لم يكن قد

(1) الأهواني، أحمد: التربية في الإسلام، لا ط.، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1968م، 11.
(2) أبيض، ملكة: "مؤسّسات التربية العربية في الشام حتّى أواسط القرن الرابع الهجري"، في التربية العربيّة الإسلاميّة: المؤسّسات والممارسات، لا ط.، عمان، المجمع الملكي، 1989م، ج1، 116.

وُزِّع على الأمصار، فكان المعلّم يعمد إلى تقسيم المتعلّمين إلى فئات صغيرة، ويضع على رأس كلّ فئة أحد مساعديه يهتمّ بهم ويتابع تقدّمهم. لقد كان لهذا التنظيم ميزتان، تتمثّل الأولى في قدرته على تحقيق الإتقان المطلوب من جميع المتعلّمين، والثانية في اشتماله على مقوّمات نموّه؛ لأنّه يفرز المزيد من المعلّمين، وهؤلاء بدورهم يلبّون حاجات أعداد أكبر من المتعلّمين.

- **التعليم الفرديّ:** كان المعلّمون الأوائل يهتمّون بالطلاّب الأكفياء بشكل فردي، ويضعونهم تحت عنايتهم، ويعطونهم قسطًا كبيرًا من أوقاتهم، ممّا مكّن هؤلاء المتعلّمين من الانتقال بدورهم إلى مرتبة المعلّمين.

- **التعليم الجماعي:** استُعمل هذا النوع من التعليم بصورة خاصّة في القصص والوعظ، واستُعمل أيضًا في الحديث والفقه، وفي القرآن أحيانًا، فكان العالِم يتّجه إلى المتعلّمين كافّة متخيّرًا الأوقات المناسبة لاجتماعهم، وبخاصّة يوم الجمعة، حين يضمّ المسجد جموعًا كبيرة من داخل المدينة وخارجها، وهو أشبه ما يكون بالمحاضرة العامّة.

- **المجالس والحلقات:** حيث كان المعلّمون يجلسون في المسجد في أحد زواياه أو أركانه، فيتحلّق الطلبة حولهم عفويًّا للتعلّم، فيحدّثهم المعلّم ويملي عليهم الأحاديث فيكتبونها. ومع تطوّر بناء المساجد وازدياد الطلب على التعلّم، نُظّمت الحلقات مكانًا وزمانًا، فاتّخذ المعلّمون لحلقاتهم مكانًا ثابتًا وزمانًا محدّدًا حتّى يتمكّن المتعلّمون من الحضور إلى مجلس معلّمهم. وكانت الحلقة تسمّى غالبًا باسم الشيخ الذي يتولّى التدريس، ثمّ أضيف إليها الاختصاص الذي يتناوله الشيخ في موضوعه كمجلس الفقه أو الوعظ ...

وكانت إدارة المساجد، بصفتها مؤسّسات التربية العامّة، تجمع بين

المركزيّة واللامركزيّة في إدارة العمليّة التعليميّة في صيغة أقرب ما تكون إلى مركزيّة التخطيط ولامركزيّة التنفيذ[1].

ولم يكن هناك موعد ثابت لحضور الطلّاب أو انصرافهم، والطالب لم يكن مقيّدًا بالاستماع إلى أستاذ معيّن، أو دراسة علم بعينه، فهم يحضرون دروس الشيخ الذي يروقهم، والشيخ بدوره لم يكن مقيّدًا بمنهج ثابت[2].

وإلى جانب المساجد كمؤسّسة تربويّة كان هناك الكتّاب الذي خُصّص لتعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن؛ ليتسنّى لهم لاحقًا متابعة دراستهم لدى المشايخ في المسجد. وكانت الكتاتيب أهليّة ومأجورة وتُقام في الأغلب في بيوت الشيوخ أو في أماكن مستقلّة، ولا يستبعد قيام بعضها في المساجد الصغيرة. واستمرّ التعليم من خلال الكتّاب فترة طويلة من الزمن.

3-2 - التربية الدينيّة في الأندلس:

بانتقال الأندلس إلى مرحلة الدولة المستقلّة، شهدت الحركة العلميّة تطوّرًا متصاعدًا، وكان طابعها العام دينيًّا، ويُمكن التمييز بين مرحلتين للتعليم: مرحلة الكتّاب ومرحلة ما بعد الكتّاب.

ففي مرحلة الكتّاب كان التعليم في مكان محدّد، كغرفة في دار، أو سقائف حول المسجد، أو مسجد خاص، أو ركن في مسجد جامع في بعض الأحيان، يذهب إليه الصبيان في سنّ صغيرة ليلقنّهم المكتِّب الهجاء ويحفّظهم سور القرآن وبعض النحو والعربية والحساب. وكانت طريقة التلقين هي الغالبة في هذا النوع من التدريس، فيقول المعلّم ما يريد تعليمه ويردّده المتعلّمون بعده، ولم يقتصر ذلك على الآيات القرآنيّة،

(1) أبيض، مؤسسات التربية العربية،م.س، ج 1، ص: 167.
(2) أحمد الأهواني، التربية في الإسلام، م.س، ص: 17.

بل تجاوز ذلك إلى القراءة وإنشاد الشعر[1]، وكان لتعليم الخط وتجويده وتعلّم الكتابة حظّ وافر إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة[2].

ويُفهم من بعض الروايات أنّ دخول الكتّاب لم يكن مقترنًا بسنّ معيّنة، كما أنّ بقاء المتعلّم فيه غير مقيّد بعمر أيضًا.

وأهمّ ما يميّز هذه المرحلة عن المرحلة التالية، هو تطبيق نظام العقوبات البدنيّة، ويتواكب التعليم مع الشعور بالإلزام، ومع اقتران أخذ المعلّم للأجر وتعليقه سمعته في اجتذاب المتعلّمين على مدى نجاحه في التأديب[3].

أمّا مرحلة ما بعد الكتّاب، فتتجلّى فيها حريّة الاختيار؛ لأنّ الطالب يختار بنفسه المؤدّب أو الشيخ الذي يريد أن يكمل دراسته لديه، فإن لم يستفد منه انتقل إلى سواه، كما أنّه يُمكنه تلقّي العلم عند أكثر من معلّم تبعًا لاختصاصه وقدرته العلميّة.

ولم يكن عدد الطلاّب محدّدًا، ولعلّ الشيء الوحيد الذي افترضَ تحديدَ العدد هو قدرة المكان على الاستيعاب.

أمّا أيام التدريس وأوقاتها فلم تكن محدّدة، ويعود ذلك إلى المؤدّبين والمشايخ. وهذه الحريّة في اختيار الزمان تواكبها حريّة في اختيار المكان أيضًا، فكلّ الأماكن صالحة لتلقّي العلم، وخيرها المسجد الجامع في كلّ بلد.

والجدير ذكره أنّ العلماء لم يبيحوا لأنفسهم أخذ الأجر على التعليم، فكانوا يمتهنون مِهَنًا يسترزقون من خلالها، مثل العمل في الزراعة أو الوراقة أو التجارة.

(1) ابن القوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس، لا ط، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1989م، 112.
(2) ابن خلدون، المقدّمة، م.س، الفصل التاسع والثلاثون.
(3) عبّاس، إحسان: "التعليم في الأندلس حتّى نهاية القرن الرابع"، في كتاب التربية العربيّة الإسلاميّة، المؤسّسات والممارسات، لا ط.، عمان، المجمع الملكي، 1989م، ج1، ص: 186.

ولم تكن توجد برامج تعليميّة متدرّجة، فالطالب يستطيع الالتحاق بأيّ درس يُقام دون التقيّد بترتيب معيّن، فإذا كانت قمة الدراسة هي النحو أو الفقه أو الحديث أو الطب، كانت الأسس الأولى كالمبادئ العامّة في النحو واللغة وتفسير القرآن وبعض الشعر[1].

وكان للمرأة في الأندلس حظ من التعليم، ولكنّه يتميّز بخصوصيّته، فالمرأة لا تذهب إلى الكتّاب، بل كان يتولّى تعليمها معلّم أو معلّمة في البيت، حتّى أن الجواري كنّ يُحرزن أنواعًا من العلوم، ويقمن بالتعليم في البيوت التي ينتمين إليها[2].

3-3 - التربية الدينيّة في مصر أبّان العهد الفاطمي:

بعد قدوم الفاطميّين إلى مصر في العام 258 هـ / 969 م تطوّرت الحركة التعليميّة فيها، وتمثّلت بظهور نظم تعليميّة جديدة، فقد نشط التعليم الخاص بالصبيان، فظهر له تسميات متعدّدة، مثل "مكاتب" أو "حوانيت"، وكان هذا التعليم قائمًا على تحفيظ القرآن مع تعليم الخط والحساب والسباحة التي أصبحت من المقرّرات الدراسيّة وكان لها معلّمون متخصّصون.

أمّا الاهتمام بتعليم الكبار، فقد بدأ مع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386 هـ - 411 هـ) الذي أسّس ما عُرف بدار الحكمة أو دار العلم التي انتشرت في ثمانمئة مكان في أنحاء مصر، وكانت تهدف إلى تعليم العلوم الدينيّة، لا سيّما ما يتعلّق بالمذهب الفاطمي الشيعي، والعلوم العقليّة، كالنحو والمنطق والأخبار وعلم الكلام والجدل والطب والهندسة والنجوم والجبر والحساب وغيرها، وكانت أشبه بأكاديميّة تتكوّن من عدّة كلّيّات، ومنهجيّتها تتمثّل في اختيار المواد، وكانت تحت إشراف الدولة

(1) عباس، التعليم في الأندلس، م.س، ج1، 190.
(2) م.ن، ج1، 191.

التي عيّنت لها كبار الموظّفين والفقهاء والمعلّمين[1]. وكان الطلبة يَفِدون إلى دار العلم في القاهرة من كلّ الأقطار، وكانت الدولة تقدّم لهم رواتب في المناسبات المختلفة وتؤمّن لهم الورق والأقلام والمداد.

كما كان هناك نوع آخر من التعليم لدى الفاطميّين هو التعليم العسكري المنظّم المطعّم بالتعليم الديني، وقد عُرف بنظام الحجر أو الحجريّة، وكانت الحجريّة تُقسم إلى قسمين: صبيان الحجر، والحجريّة الكبار الذين عُرفوا بالأجناد أيضًا.

أمّا التعليم الديني المذهبي، فكان يتمّ في المسجد والقصر، ففي العهد الفاطمي نشأ جامع الأزهر[2] في القرن التاسع الميلادي، واتُّخذ مكانًا لدراسة العلوم الدينيّة، وأمّه منذ تأسيسه الطلّاب من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، ابتداء من الساحل الذهبي حتى جزر الملايو، وكان التعليم فيه يتمّ عن طريق الحلقات التي يحضرها الرجال والنساء. أمّا التعليم في القصر فيتمثّل بما عُرف بمجالس الدعوة أو الحكمة التي يُشرف عليها الخليفة الفاطميّ بنفسه، ولم تقتصر هذه المجالس على المتشيّعين، وإنّما اختلف إليها الناس من مختلف الطبقات والمذاهب، كما حضرت النساء هذه المجالس في سابقة لم تحصل قبل ذلك منذ ظهور الإسلام[3].

لقد كان للفاطميّين دور كبير في تشجيع العلم بأنواعه المختلفة مع التركيز على التعليم الديني للصغار والكبار وللنساء والرجال، وعمدوا إلى تثقيف عامّة الشعب بتشجيع الموروث القصصيّ. ونتيجة جهودهم الكبيرة تبوّأت القاهرة على أيديهم الصدارة الأولى في الحركة التعليميّة في العالم الإسلامي.

(1) ماجد، عبد المنعم: "التعليم عند الفاطميّين"، في كتاب التربية العربيّة الإسلاميّة في التربية العربيّة الإسلاميّة: المؤسّسات والممارسات، لا ط.، عمان، المجمع الملكي، 1989م، ص: 273.

(2) سمّي بالأزهر نسبة إلى السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت النبي محمّد ﷺ وزوجة الإمام علي عليه السلام، وهو الأزهر نفسه المعروف حاليًّا في مصر الذي يعتبر أقدم جامعة إسلاميّة عاملة في العالم كما أنّه أقدم جامعة في العالم إطلاقًا.

(3) ماجد، عبد المنعم: "التعليم عند الفاطميّين"، في كتاب التربية العربيّة الإسلاميّة، م.س، ص: 274 - 275.

يتّضح من خلال العرض المتقدّم أنّ التربية الإسلاميّة، خلال القرون الأربعة الأولى من الإسلام، اتّخذت من المسجد مكانًا ومرتكزًا لها، فالمسجد لم يكن دار عبادة فقط، وإنّما تبوّأ دورًا تربويًا كبيرًا، جعل منه مكانًا محوريًّا في حياة المسلمين، فأمّ المسلمون المساجد وأخذوا عن مشايخهم العلوم المختلفة. وكانت الكتاتيب مرحلة أوّليّة يتعلّم فيها الصبيان القراءة والكتابة ويحفظون القرآن، ثمّ يستكملون دراساتهم لدى المعلّمين والعلماء الذين غالبًا ما اتّخذوا المسجد مكانًا للتدريس والتعليم.

وكان التعليم بطابعه العام دينيًّا ومرتبطًا بعلوم القرآن والحديث إلى جانب العلوم الداعمة لها من منطقٍ ونحوٍ ولغةٍ، فضلاً عن العلوم التي كانت معروفة في الأوساط الإسلاميّة آنذاك. وغلب على طرائق التعليم طريقة التلقين عن طريق الإلقاء والسماع والحفظ إلى جانب طريقة السؤال والجواب.

ولمّا كان المسلمون مكلّفين بمعرفة أمور دينهم وتأدية عبادتهم، فقد وجب تعليمهم، فلم يُحرَم أحد من التعليم لفقره، فكانت حلقات المشايخ في المساجد تتسع للمئات، وكان التعليم عامًّا للجميع من دون تمييز بين الناس، وفي الوقت نفسه كان بمعظمه مجّانيًّا، فقد شجّع الإسلام على بذل الأموال لتعليم المسلمين ورفع أعبائه عن عاتق الطلاب، فوُقفت الضِياع والعقارات وصُرف رَيعها على التعليم.

لقد تميّزت هذه الفترة من العهد الإسلامي بالعمل على نشر الدين وتعاليمه من خلال الاهتمام بالعلم وتعليمه، ومن خلال ما عُرف بالفتوحات الإسلاميّة، فقد كان الخلفاء يرسلون العلماء إلى الأمصار مع الجيوش لنشر الدعوة الإسلاميّة ويوصون ولاتهم بالاهتمام بنشر التعاليم الدينيّة[1].

(1) النوري، عبد الغني التربية الإسلاميّة بين الأصالة والمعاصرة، 128.

4- التربية الدينيّة بعد القرن الخامس الهجري حتّى القرن الثالث عشر الهجري:

تغيّرت أحوال التعليم بعد القرن الرابع الهجري تغيّرًا كبيرًا، ولكنّه لم يخرج كثيرًا عن جوهر التعليم المألوف، بل كان تغييرًا في الشكل والانتظام والانتشار.

فقد انتظمت الكتاتيب نوعًا ما واستقرّت لعناية أولي الأمر بها ورصد جزء من المال العائد للأوقاف الإسلاميّة للصرف عليها[1]، فعمّت وانتشرت واستمرّت.

وأمّا التعليم في المساجد فقد انتظم أمره وشهد إقبالاً كبيرًا، فكانت حلقات العلم في المساجد تضمّ الآلاف من المتعلّمين.

ونتيجة لاهتمام المسلمين الكبير بشأن التعليم وبخاصّة الديني منه، فقد ظهرت وبرزت أطر ومؤسّسات جديدة للتعليم ساهمت في انتشاره وتوسّعه وتطوّره، فكانت المدرسة هي الظهور الأبرز بالإضافة إلى التُّرَبِ والدور التعليميّة والحوانيت وغيرها، نستعرضها من خلال الآتي:

4-1 - المدارس:

في أواخر القرن الرابع الهجري نشأ بين الكتّاب والمسجد نوع من المؤسّسات التعليميّة هو أشبه ما يكون بالمدرسة، والتي كانت تُلحَق عادة بالمسجد، ويتلقّى فيها الطلبة التعليم المتوسّط الذي هو أرفع من تعليم الكتّاب وأقلّ من تعليم المسجد، وتمتاز بنظامها كما هي الحال في الكتاتيب[2].

ولاحقًا استقلّت المدرسة كمؤسّسة تعليميّة، ويبدو أنّ بلاد المشرق الفارسيّة كانت أسبق من غيرها في إدخال اسم مدرسة واستعماله كمرادف

(1) الأهواني، أحمد: التربية في الإسلام، م.س، 69.
(2) م.ن، 16.

لبيت التعليم أو لدار العلم، فقد ذكر التاريخ قيام مدارس في نيسابور، وهيطل، وسمرقند، وخجند، وإقليم خراسان، ثمّ أخذت بالظهور في المدن الإسلاميّة الأخرى كبغداد ودمشق.

وشاع استعمال لفظ المدرسة في حاضرة الدولة الإسلاميّة في منتصف القرن الخامس الهجري بعد قيام الوزير السلجوقي الفارسي نظام الملك بإنشاء عدد من المدارس النظاميّة في كبريات المدن الفارسيّة، أصفهان ونيسابور ومرو وغيرها، وفي بغداد والبصرة والموصل[1]. فنظاميّة بغداد التي أنشئت في عام 459 هـ ظلّت المدرسة الكبرى الوحيدة لعشرين سنة أو أكثر في بغداد.

وبعد ذلك أخذت المدارس تتكاثر وتنمو، ففي العام 580 هـ وُجدت في بغداد 30 مدرسة، وأُحصي في دمشق 20 مدرسة تتابَعَ بناؤُها على مدى نصف قرن، وبلغ عددها في أوّل عهد المماليك 87 مدرسة، وعندما دخل الأتراك دمشق كان فيها أكثر من 150 مدرسة للقرآن والحديث والفقه والطب والهندسة، وكان يوجد مثل هذا العدد في القاهرة، فقد بلغ عدد مدارسها 155 مدرسة في نهاية عهد الغوري آخر السلاطين المماليك (922 هـ). وما لبثت أن انتشرت المدارس في الأقاليم الإسلاميّة الأخرى بشمال أفريقيا والمغرب العربي وفي اليمن وبلاد الحجاز والمدن العثمانيّة[2].

وكان أكثر هذه المدارس مدارس فقهيّة متخصّصة بتدريس الفقه، وقليل منها بُني ليكون مدارس طبيّة كالمدرسة الباتكينيّة بالبصرة والمدرسة الرحبيّة بدمشق. ومعظم المدارس زُوِّدَت ببيوت لسكنى الطلبة والأساتذة، فالمستنصريّة ببغداد ضمّت 100 بيت لسكنى الطلّاب بواقع ثلاثة طلبة في كلّ منها، وكانت المدرسة تقدّم لهم الطعام وتؤمّن لهم مستلزمات

(1) زيدان، جرجي: تاريخ التمدّن الإسلامي، لا ط، القاهرة، دار الهلال، لا.ت ج3، 225.
(2) قمبر، محمود: "التربية الإسلاميّة"،: مفاهيم، أهداف، أسس، طرائق، مؤسّسات"، في دراسات في أصول التربية، ط3، الدوحة، دار الثقافة، 1994م، ص: 411.

الفرش. واحتوت المدارس قاعات الدرس والمكتبة والمسجد، واستخدمت عددًا من الفنيّين والموظّفين والإداريّين والعمّال والخدم[1].

وقد ارتبطت شهرة المدرسة بشهرة أستاذها، وكانت تسمّى المدرسة أحيانًا باسم مدرّسها كالمدرسة العوفيّة، كما كانت تسمّى باسم صاحبها أو بانيها كالمستنصريّة أو الخروبيّة أو الحسنيّة.

2-4 - معاهد التعليم في التُرُب:

لقد بلغ من شدّة اهتمام المسلمين بالعلم والتعليم أن قاموا بتوسيع التُرُب التي تضمّ رفات أمواتهم لتكون مدارس علم أو مكتبات مطالعة أو مكاتب لتحفيظ القرآن أو دورًا لدراسة الحديث، وقد بدأ ذلك التقليد منذ منتصف القرن الخامس الهجريّ، ومن أوائل من قام بذلك السلطان الأشرف بن المنصور قلاوون الذي أنشأ تربة كبيرة بدمشق عام 459 هـ ضمّنها مدرسة وخزانة كتب قيّمة ورتّب فيها دروسًا للفقهاء.

ومن التُرُب المشهورة في القاهرة التربة الناصريّة التي بناها الناصر فرج بن الظاهر برقوق سنة 813 هـ التي ضمّنها مدرسة لتدريس المذاهب والعلوم الدينيّة، كذلك تربة أمّ الصالح التي أنشأها الملك الناصر قلاوون في سنة 682 هـ وتربة السلطان التي بنيت عام 879 هـ وخُصّص بجانبها بيوت سكنى طلّاب العلم والزهّاد[2].

ومن التُرُب المشهورة في دمشق التربة البدريّة التي بناها الأمير بدر الدين حسن في سنة 814 هـ وتربة الخواجا أبي بكر بن العيني، والتربة الكوكبائيّة التي بنتها الخوندة ستيتة، وجعلت فيها مسجدًا ورباطًا للنساء ومكتبًا للأيتام، وتربة الأمير أبي المعالي التي يتعلّم فيها الأيتام القراءة والحديث والقرآن[3].

(1) قنبر، التربية الإسلامية، م.س، ص: 412.
(2) م.ن، ص: 413 - 414.
(3) م.ن، ص: 414.

4-3 - الدور التعليميّة:

نشأت في المجتمع الإسلامي دور تعليميّة قامت على نحو ما بوظائف المدارس، بعضها قدّم السكن والرواتب للطلبة، وبعضها اقتصر على مهمّة التعليم، وبعضها الآخر كان أشبه بمكتبات عامّة يقيم فيها شيخ أو أكثر لإفادة طالبي العلم، ومن هذه الدور التعليميّة ما يأتي:

- دار الحكمة أو دار العلم التي أنشأها الفاطميّون في القاهرة التي كان يحضرها الناس للقراءة والكتابة والتعلّم، وزُوّدت بكلّ ما يحتاجون إليه من حبر وأقلام وأوراق ومحابر، وكان أساتذتها من أهل الحساب والمنطق والفقه والطب.
- دار علي بن يحيى المنجم بكركر من قرى بغداد، وكانت عبارة عن قصر فيه خزانة كتب كبيرة سُمّيت بخزانة الحكمة، وقد قصدها الناس من أنحاء مختلفة، وكانوا يُقيمون فيها ويتعلّمون صنوف العلم وتُقدّم لهم تسهيلات ونفقات تعينهم على الإقامة والتعلّم.
- دار الشريف الرضي (406 هـ) التي كان الطلّاب يفدون إليها ويُجري عليهم أرزاقًا.
- دار الشريف المرتضى التي اختلف إليها كبار رجال العلم والنظر وطلبة العلم، وكانت تُجرى فيها مناظرات ومناقشات في مختلف أنواع العلوم، كما كان صاحبها يجري على طلّابه المعسرين مسلمين وغير مسلمين أموالاً لنفقاتهم.

وقامت في جنبات الدولة العثمانيّة دور كثيرة للتعلّم على غرار المدارس، منها دار القرّاء، ودار العلم لمحمّد الرومي، ودار محمّد بن عبد الرحمن الحلبي بالقسطنطينيّة، وغيرها الكثير ممّا لا يتّسع المجال لذكرها.

5- التربية الدينيّة الإسلاميّة بعد القرن الثامن عشر:

ظلّت المدارس في الدولة الإسلاميّة تقوم وتعمل كمؤسّسات حرّة أو مستقلّة حتّى بدايات القرن التاسع عشر عندما ظهرت النظم التعليميّة بفلسفات وأشكال تربويّة جديدة متأثّرة بالتطورات الغربيّة التي غيّرت من نظم المجتمع، فأنشأت الدولة نظمها التعليميّة، وانفصل نظام التعليم عن الدين، ممّا أدّى إلى تقلّص نصيب التربية الإسلاميّة من الوقت المخصّص للتعليم في المدرسة الحديثة، وذلك بحكم اتّجاهها نحو العلوم الحديثة المختلفة، من دون الأخذ بعين الاعتبار الظروف التي أدّت إلى فصل النظام التعليميّ عن الدين في الغرب، ومن دون الالتفات إلى اختلاف الديانة المسيحيّة عن الديانة الإسلاميّة، فالأولى طابعها العام روحيّ، بينما الثانية شاملة لكلّ حياة الإنسان بأبعاده المختلفة، ولها في كلّ واقعة رأي، وفي كلّ مسألة حكم، فهي تنظّر لنظام حكم كاملٍ يوجّه الناس في حركتهم نحو الكمال في الدنيا والآخرة.

وممّا تقدّم يظهر أنّ التعليم لدى المسلمين اتّصل بالدين اتّصال الوسيلة بالغرض، فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة لم يكن غاية في نفسه، بل هو سبيل لتحصيل القرآن، فكان القرآن هو محور العمليّة التربويّة والتعليميّة، فدارس اللغة يدرس القرآن، والشاعر يدرس القرآن، والقاضي يدرس القرآن، والحَدَث يدرس القرآن، فهو كتاب المسلمين الذي يجمع بين دفّتيه قواعد الدين وأسرار العقيدة، وهو كلام الله المقدّس، ومعرفته ضروريّة لمعرفة الدين.

وقد عرف المسلمون أهمّيّة التربية الدينيّة من الأيّام الأولى للدعوة الإسلاميّة، فاهتمّوا بها وأَوْلَوها عناية خاصّة، فأقبلوا على تعلّم الدين واعتنوا بتعليم أبنائهم مبادئه وتعاليمه، فكانت المساجد هي الحاضنة الأولى للعلم الديني إلى جانب الكتاتيب والمدارس بأشكالها المختلفة.

وقد لعبت التربية الدينيّة دورًا مهمًّا في نشر الثقافة والعلم في أوساط المسلمين وفي حاضرة الدولة الإسلاميّة، ممّا أدّى إلى تبوّء المسلمين موقع الصدارة في العلم والمعرفة في أكثر من مجال وفرع علميّ، وكانوا السبّاقين للكشف عن الكثير من الحقائق العلميّة التي مهّدت الطريق لتطوّر العلوم في الغرب لاحقًا.

لقد كانت الصفة الغالبة على التعليم حتّى أواخر القرن التاسع عشر هي الصفة الدينيّة، والدين كان الموجّه والحاكم لحياة الناس والضابط لسلوكاتهم في معظم المجتمعات عبر التاريخ. وكان للتعليم أهداف متعدّدة، لكنّها كانت تدور في فلك الدين وتتشرّب قِيَمه وتعاليمه. وبعد انفصال النظام التعليمي عن الدين في معظم دول العالم ابتداء من القرن التاسع عشر، انكفأ التعليم الديني في المدارس لصالح العلوم العصريّة التي أخذت بالتنامي والتوسّع، فارضة نفسها على النظام التعليمي والواقع الاجتماعي، ولكنّ التعليم الديني خارج المدرسة لم يتوقّف، بل استمرّ كما كان من قبل، وعزّز أطره السابقة، واستحدث أطرًا جديدة للتعليم التخصّصي من قبيل الحوزات العلميّة لدى المسلمين الشيعة، والأزهر لدى المسلمين السنّة، ومعاهد اللاهوت لدى المسيحيّين.

وهذا يؤكّد تجذّر الدين في حياة البشر، ويؤكّد ضرورته الحياتيّة، فالدين من خلال دوره ووظائفه هو عامل أساسي في تاريخ المجتمعا،ت ولاعب فاعل في حياة الأفراد، والتربية الدينيّة هي حاجة مجتمعيّة كما هي حاجة فرديّة.

خاتمة:

باستعراضنا لمراحل تطوّر التربية الدينيّة الإسلامية، وجدنا أنّ التعليم لدى المسلمين اتّصل بالدين اتّصال الوسيلة بالغرض، فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة لم يكن غاية في نفسه، بل هو سبيل لتحصيل القرآن، فكان القرآن هو محور العمليّة التربويّة والتعليميّة، وقد عرف المسلمون أهمّيّة التربية الدينيّة فاهتمّوا بها وأولوها عناية خاصّة، فأقبلوا على تعلّم الدين واعتنوا بتعليم أبنائهم مبادئه وتعاليمه. ولم يستمرّ الوضع على حاله، فكان لانفصال نظام التعليم عن الدين في القرن التاسع عشر تأثير سلبي في التربية الدينيّة عمومًا، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ التعليم الديني، ارتكزت على الفصل بين الدين والعلم، فانحصر التعليم الديني في المدارس وتقلّص نصيب التربية الدينيّة من الوقت المخصّص للتعليم في المدرسة الحديثة وذلك بحكم اتّجاهها نحو العلوم الحديثة المختلفة. وبالمحصّلة العامّة وجدنا أنّ الصفة الغالبة على التعليم حتّى أواخر القرن التاسع عشر كانت هي الصفة الدينيّة، وبعد انفصال النظام التعليمي عن الدين في معظم دول العالم انكفأ التعليم الديني في المدارس لصالح العلوم العصريّة التي أخذت بالتنامي والتوسّع، فارضة نفسها على النظام التعليمي والواقع الاجتماعي، ولكنّ التعليم الديني خارج المدرسة لم يتوقّف، بل استمرّ كما كان من قبل، وعزّز أطره السابقة، واستحدث أطرًا جديدة للتعليم التخصّصي.